بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث أَبي هريرةَ -رضي الله عنه- "المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يخُونُه وَلاَ يَكْذِبُهُ وَلاَ يخْذُلُهُ" ٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

وقوله: ((التقوى هاهنا)) يعني: في القلب، والتقوى حقيقتها معروفة، وهي أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله -عز وجل- وقاية بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وألا يجدك حيث نهاك، وألا تُفقد حيث أمرك، والتقوى إنما تنشأ من القلب، وذلك أن عمل القلب أصل لعمل الجوارح، وكل أعمال الجوارح إنما هي متفرعة من عمل القلب، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))[١]، فهذا القلب هو ملِك الجوارح وهي رعيته، وتصلح بصلاحه وتستقيم باستقامته، فقد تكون الجوارح مشتغلة بما ظاهره أنه من الأعمال الصالحة، ولكن الإنسان بمنأى عن ذلك كله إذا كان قلبه خالياً من تقوى الله -عز وجل-، وإرادة ما عنده، والإخلاص لوجهه، ولهذا قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: "والتحقيق أن كل عمل في الظاهر من مؤمن لابد أن يصحبه عمل القلب، بخلاف العكس، فلا يُتصور عمل البدن منفردًا إلا من المنافق الذي يصلي رياء وكان عمله باطلًا حابطًا"[٢]، ويقول -رحمه الله- أيضاً: "فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح، وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب؛ والأصل فيه التصديق والعمل تابع له"[٣] وذلك أن الإنسان تسلم جوارحه لربه ومليكه وخالقه -جل جلاله-، فيذعن، فلا تمشي الرجل إلى شيء حرمه الله -تبارك وتعالى-، ولا تبطش اليد بشيء حرمه الله، ولا تسمع الأذن شيئاً حرمه الله، ولا تمتد العين إلى شيء لا يحبه الله -عز وجل- ويسخطه، هذا معنى ((التقوى هاهنا))، وليس المراد أن الإنسان يزعم أن قلبه قد اتقى وإن كانت جوارحه تشتغل بالمعصية، فهذا فهم غير صحيح، لأنه لو كان متقياً حقيقة لصلحت جوارحه، وصلحت أعماله، فصلاتنا، وصيامنا وحجنا، وصدقتنا، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وكفنا عن جميع أنواع المحرمات، والمشتبهات والمكروهات هو من التقوى، والناس في هذا مراتب يتفاوتون فيها غاية التفاوت، ويحصل بسبب ذلك تفاوتهم في سيرهم على الصراط، وكذلك تفاوتهم في المنازل في الآخرة، بهذه التقوى، لا بالأشكال ولا بالأموال، ولا بقُوى الأبدان.

وقوله: ((بحسب امرئ من الشر..))، يعني: يكفيه من الشر أن يحقر أخاه المسلم، لأنه لا فرق بينك وبينه من حيث معنى الإنسانية، فالله -عز وجل- يقول: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين:٤]، ويقول أيضاً: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء٧٠]، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ} [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى حكاية

---

[١]- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، (٢٠/١) برقم: (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (٣/ ١٢١٩) برقم: (١٥٩٩).

[٢]- المستدرك على مجموع الفتاوى (١٠٠/٣).

[٣] - مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٣).

عن قول إبليس: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} [الإسراء:٦٢]، فالله -عز وجل- كرم ابن آدم، وأعطاه من ألوان الكمالات التي نعرفها، وما يخفى علينا من ذلك أكثر، ثم يأتي إنسان ويُعرض عن هذا كله، ويحتقر هذا الإنسان؛ لأن جنسيته كذا، أو لأنه من القبيلة الفلانية، أو من البلد الفلاني، فهذا من عمل الشيطان، ولذلك تعجب حين ترى أمماً من الأعاجم لا فرق بينهم إطلاقاً في الشرف، وأعمالهم ومروءاتهم متقاربة، ومع ذلك تجد أن بعضهم يحتقر الطائفة الأخرى أو القوم الآخرين من جيرانهم غاية الاحتقار، ويغضبون جداً إذا نُسبوا إليهم، إذا أخطأ أحد ونسبهم إليهم وقال لهم: أنتم من كذا، يغضبون غاية الغضب، وهذا يحصل كثيراً في المسلمين وغيرهم، ولا يوجد مبرر لهذا الغضب قطعاً، حيث لا مكارم يتمايزون بها، ولا فضائل يتفاضلون فيها.

فالتفاضل إنما هو بالتقوى، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى))[٤]، فإذا استوى العربي والأعجمي بالتقوى فيكون للعربي مزية وهو أنه من هذه الأمة المكرمة الشريفة، التي قد جعلها الله -عز وجل- حاملة للرسالة، وجعل لغتها هي لغة القرآن، وجعل النبي الخاتم الذي هو أفضل الأنبياء من هؤلاء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل))[٥]، فهؤلاء لا شك أن الله -عز وجل- اختارهم وكرمهم، فإذا كان الإنسان متقياً وهو من الأعاجم والآخر من العرب وهو غير متقٍ فإن الأعجمي أفضل منه، قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد:١]، فهذا عم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو قرشي نسباً ولكنه لم ينفعه نسبه حيث لم يؤمن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((سلمان منا أهل البيت))[٦].

فالكبر آفة وصفة ذميمة في الإنسان ونقص فيه، وإنما كمال الإنسان بالتواضع، لأن الكبر صفة لا تصلح للمخلوق إطلاقاً، وإنما تصلح للخالق، فإذا لبسها يكون قد أزرى بنفسه وحط من قدره، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))[٧]، تجد بعض الناس يحتقر أخاه المسلم، وقد يُحقر الرجل على شيء من مظاهر الدنيا، ولربما يأنف الناس من مصافحته أو السلام عليه، أو الجلوس بجانبه، وقد يكون أتقى لله -عز وجل- منه، قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((إن من عباد الله

---

[٤]- أخرجه البيهقي، في شعب الإيمان (١٣٢/٧)، برقم: (٤٧٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٢٧٠٠).

[٥]- أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، (١٧٨٢/٤) برقم: (٢٢٧٦).

[٦]- المعجم الكبير للطبراني (٢١٢/٦)، برقم: (٦٠٤٠)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم: (٣٧٠٤)، وقال: ضعيف جداً.

[٧]- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، (٩٣/١) ، برقم: (٩١).

من لو أقسم على الله لأبره))[٨]، وقد يكون ذا أطمار، مدفوعًا بالأبواب، أشعث أغبر إذا حضر لم يعرف، وإذا غاب لم يذكر، ومع ذلك هو عند الله بمنزلة عالية.

فهذه القضايا لا يلتفت فيها إلى مظاهر الدنيا وبهرجها، وما يتنافس فيه المتنافسون، وإنما ينظر فيها بالميزان الصحيح وهو التقوى.

هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

---

[٨] – أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {والجروح قصاص}، (٦/ ٥٢)، برقم: (٤٦١١)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، (٣/ ١٣٠٢)، برقم: (١٦٧٥).